رواية

Telegram:@mbooks90

خوان خوسيه ميّاس

قصتي الحقيقية

ترجمها عن الإسبانية: أحمد عبد اللطيف

المتوسط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأنت، ما سرك؟

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

أنا أكتب لأن أبي كان يقرأ.

انظروا إليّ في صالة البيت تلك الفترة، الأثاث كان غامقاً، غامقاً أيضاً كنت أنا من وراء الكنبة. أنا هذا الكائن الذي تقول له أمه: لا تصرخ، بابا يقرأ، لا تركض بالممر، بابا يقرأ، اخفض صوت التلفزيون، بابا يقرأ... بابا يقرأ. وبابا لم يكن يفعل شيئاً غير القراءة. أحياناً كنت أجلس إلى كرسيه الكبير وأفتح واحداً من هذه الكتب وأقلّد حركاته. وحين كنت أفتحه بالمقلوب كانت أمي تسخر مني. تقول: لا أعرف من المقلوب، أنت أم الكتاب. أكتب لأنه يروق لي تخيُل أن الكتاب الذي يمسك به بابا بين يديه كتابي. أكتب أيضاً بطريقة من يكون سجيناً فيما يكون أبي هو السجّان.

حين تعلمت القراءة، أصبحت أمسك بالكتب بالشكل الصحيح، رغم ظني الآن أني كنت أمسك بها بالمقلوب، وكنت أقرأها فيما أتخيلني أبي، أبي يقرأ لي.

كيف سيفكر في هذه العبارة، أو في العبارة الأخرى، التي كتبها ابنه؟ من أوائل الكتب بمكتبة أبي التي استطعت تهجئة عنوان غلافها كان بعنوان "الأبله"، وبدا بالنسبة لي أحد أغرب ألغاز تلك الفترة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قرأت بعض السطور من هذه الرواية وأنا أبحث عن نفسي فيها، متخيلاً أني أنا من كتبها ومحاولاً فهم ما الذي يراه أبي في الأبله (الذي هو أنا). حدث أني كنت أدرك أني أبله قليلاً، من بين أشياء أخرى لأني كنت أتبول في السرير في سن لم يعُد ذلك طبيعياً فيها.

لا تلعب في الممر، بابا يقرأ. وذات يوم استضافوا بابا في التلفزيون ورأيته أنا وماما، وكانت سعيدة جداً حد التأثر. كان برنامجاً عن الكتب وكان أبي يتناقش فيه مع آخرين كانوا أيضاً يقرؤون وبعض من كانوا يكتبون. وتأكدتُ حينها بشكل غامض أن مكاني، لو كان لي مكان، سيكون بين من يكتبون، لأني تخيلتهم بسهولة يتبولون في السرير. حين عاد أبي من اللقاء، قبّلته أمي في فمه قبلةً أحزنتني أكثر مما أسعدته وقالت له إنه كان رائعاً، أفضل من الجميع، أكّدت له أمام ارتياب انطباعاته. رن التليفون عدة مرات وكانوا أصدقاء أو أقارب قالوا له الشيء نفسه: كان رائعاً، أفضل من الجميع. وفي اليوم التالي أكد أبي أنه لن يظهر في التلفزيون مرة أخرى. ومن تفاهتي العقلية حدست أنها طريقة ليقول لهم ألّا يعاودوا الاتصال به.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

في تلك الأيام (وكنت أتممت الثانية عشرة ولا أزال متبولاً في السرير) وقع حدث فظيع، وكان كذلك مُنذراً، سألتفت إليه الآن لأول مرة. صدقوا ذلك أو لا تصدقوه (ومن الأفضل ألّا تصدقوه، رغم أنكم قد تتذكرون الحكاية، إذ انتشرت في كل مكان)، حدث أنه في يوم اثنين، عند العودة من المدرسة، قررتُ أن أنتحر، ومن ثم صعدت إلى جسر يمر من تحته طريق سريع يقع بالقرب من بيتي. ربما لن تميزوني جيداً لأن نهارات الشتاء قصيرة جداً وكان الظلام قد بدأ يحل. لكن دققوا النظر، ركّزوا كيف أحدّق مسحوراً في حركة السيارات ذهابً وإياباً، زووم، زووم، زووم! أنا هذا الطفل المسكين الذي سيقفز الآن من فوق الجسر متوقعاً أن أموت في الحال، مثل الحشرات حين تصطدم بزجاج السيارة الأمامي.

في الصيف، حين كان أبي يصل إلى الشاطئ، يحدّق بافتتان في زجاج سيارة الـ "سيتروين" ليتحقق من كمية الحشرات التي قضت نحبها عليه، والتي كانت تبدو حروفاً مكسورة. هل كنت أبدو أنا أيضاً حرفاً مكسوراً؟ ربما حرفاً كبيراً؟ كانت تروق لي فكرة أن أبي يتأملني بافتتان غريب، وربما بألم، كما كان يتأمل الحشرات.

لم أكن في حجم يعسوب، ولا حجم عصفور كذلك (لم يصطدم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالزجاج أي طائر)، كنت قصيراً ونحيفاً، بحيث أني لو ألقيت نفسي من الجسر، فالمؤكد أني سأهلك في عُشر ثانية. وقبل أن ألقي بنفسي، ولأتحقق بسذاجة من أن قوة الجاذبية موجودة، لا أعرف، أخرجت من جيبي "بلية"(1) مخبّأة كنت قد عثرت عليها ذلك اليوم في حوش المدرسة، وتركتها تسقط فوق سيل السيارات لتصطدم بزجاج سيارة مرسيدس وتسبّب اضطراب حركتها قبل أن تقفز الحاجز بين الطريقين وتقتحم الرصيف الآخر مقلوبة، وتصدم بمقدمتها شاحنة نقل.

استفتوا قلوبكم لتعرفوا كيف توقف قلبي. لاحظوا ألمي في صدوركم. تألموا كأن اختناقي هو اختناقكم. تأكدوا كيف غامت رؤيتكم من نقص الأوكسجين. انسوا انتحاركم لأنكم موتى بالفعل واهربوا من مسرح الجريمة من أثر الاختناق لأنكم لا تتنفسون واختنقوا لأنكم تتنفسون بشكل زائد عن اللازم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

وصلت إلى البيت دون جسد. أو، بشكل أدق، بجسد مفكك، شبه سائل، حتى أسناني كانت تبدو مرنة. كنت تبولت وتغوطت على نفسي فيما كنت أركض بساقين من اللبّاد وكنت أتنفس برئتين من القماش وأراقب الواقع بعينين من الجيلاتين. كنت أسمع صفير سيارات الشرطة أو الإسعاف. وأخيراً وجدتُ نفسي أمام باب بيتي. أخرجت المفتاح المتصّل بحافظة جلدية كنت أعلّقها برقبتي. استطعت إدخاله في القفل بعد أربع أو خمس محاولات فاشلة (أصابعي، المفككة، لم تكن قادرة على السيطرة عليه). أغلقت الباب ورائي. وتحققت أن لا أحد في البيت، رغم أنّ أمي ستصل عمّا قليل. وصلت إلى الحمّام. كانت أطرافي وأعضائي تتحول حقاً إلى جسد لعبة قماشية. وبدأت أعرق. وكان اللعاب يدور في مكانه في فمي غير قابل للبلع، وكانت عيناي تستعيران مرونة الأعضاء الرطبة. خلعت حذائي وجوربي. وأنزلت سروالي ولباسي المبلولين والمتسخين. ونظفت مؤخرتي وما بين ساقيّ بمناديل الحمّام. وسمعت صرير الباب. وكانت خطوات ماما تتقدم في الممر. وسمعت سؤالها الصاخب (هل هناك أحد بالبيت؟). وتسمّرت في مكاني. وتوقفت خطواتها أمام باب الحمّام. تزامنت دقات أمي مع صوت ندائها: (هل أنت هنا؟).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتحت الباب لتراني على حالتي هذه. وبلهفة مالت عليّ لتسألني: ماذا حدث؟، ماذا حدث؟. وأنا قلت لقد تبولت على نفسي وتغوطت، يا ماما. وأفكر، في هذه الغمامة، أن الأفضل أن أبكي (لكن لا تأتي دموعي). تتحسس أمي جبهتي. وارتسم على وجهها القلق والضيق مثلما يحدث حين أمرض.

رأت السروالين الخارجي والتحتي متسخين، والمناديل نتفاً في الماء، غطاء الحمّام مفتوح. تكفّلت هي بالمهمة. جمعت الملابس ووضعتها في البانيو، واعطتني اسفنجة، وأرشدتني أين يجب أن أفرك. سألتني ماذا أكلت في المدرسة؟، إن كانت بطني تؤلمني؟ هل أشعر بصداع؟.

Telegram:@mbooks90

والواقع (الواقع الذي لا يصدق) كما هي طبيعته. أنا الآن أرتدي البيجامة. أقلّب الزبادي بملعقة. يصل بابا، يسأل، يهز رأسه بلا أدنى اهتمام، ويشرع في القراءة...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

يذيعون الخبر في التلفزيون، تنشره الجرائد، يعلقون عليه في المدرسة، في البيت، في الشارع. وأعرف أن ركاب سيارة المرسيدس كانوا رجلاً وزوجته وطفلته التي من سني وطفلاً أصغر قليلاً. يموتون جميعاً باستثناء الطفلة التي من سني. يقولون إنها معجزة أن تبقى على قيد الحياة في المستشفى، رغم إصابتها. وفيما يتحدثون، أتخيل الطفلة برأس مكسوٍ بالأنابيب. واكتسبتُ ـ لأداري وضعي كقاتل ـ نوعاً من الصرامة في وجهي لا زلت أحتفظ بها. نظرتي حيادية، ابتسامتي موضوعية، ما من طريقة يستنبط منها ما أشعر به. لقد عرفوا أن أحداً قد ألقى شيئاً من فوق الجسر، ونشروا بعد ذلك أن الشيء كان "بلية" زجاجية اختفت بطبيعة الحال بعد الحادث. ذكروا أن المكان تحيط به مدارس متعددة.

ذات يوم، ومن نافذة الفصل، في حصة اللغة، أرى مدير المدرسة بالفناء يتحدث مع سيديْن، ربما كانا شرطييْن. لست أنا واحداً من هؤلاء الأطفال الذين يحملون "بلىً"، ولا أجمعها، ولا ألعب بها. لقد عثرت عليها في الفناء وخبأتها في جيبي. ولا أنا طفل مثير للمشاكل. اقترب مفتش وأعطانا درساً عن خطورة أن نلقي أشياءَ من فوق الجسر، الذي سيرفعونه بعد ذلك بجدار. وبينما يتكلم، يراقب وجوه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأطفال، ويراقب وجهي. هو بالتأكيد مفتش نفسي، وبالتالي شددت على انطباع الحيادية، إيماءة الأبله. "الأبله"، الرواية التي كان يقرأها أبي، تعرفت على اسم مؤلفها، دوستويفسكي. ويمر الوقت، وينفك الحصار شيئاً فشيئاً.

سأستمر بقية حياتي محاطاً بأناس عاديين دون أن ينتبهوا إلى أني لست واحداً منهم. لو قلتَ "حاضر" للجميع، يعاملك الناس على أنك طبيعي. ارتد معطفاً، الجو بارد. حاضر. من المدرسة إلى البيت مباشرةً. حاضر. إنها ساعة النوم. حاضر. لا يهم ما يطلبون، أنت فقط قل للجميع حاضر. وأحياناً، حتى تكون "حاضر" مقنعة، ينبغي أن تقول لا. هل تكذب كثيراً؟ لا. وهذه الـ "لا" هي "حاضر" في مضمونها. وبطريقة غامضة، أصابت روحي عدوى الحيادية المطبوعة على وجهي. أغدو متأملاً لطيفاً. لكن بقدر ما يتراخى الحصار خارج البيت، يشتد بداخلي. وفي يوم ألفُّ رأسي وأكتشف أن أمي تتأملني منذ برهة. فتبعد نظرها مأخوذة. وأنتبه إلى أنها تجمع أفكاراً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

أمي تجمع أفكاراً بالنهار وتطلقها بالليل. يعلو وجهها أحياناً تعبير "كيف لم أنتبه من قبل (للسراويل المبللة بالبول والغائط، ولوجهي المرعوب...) وأحياناً أخرى تعبير "مستحيل، مستحيل، ابني لا". أمي تعرف، كل الأمهات يعرفن. ومع مرور الأيام تنتبه إلى أني أعرف أنها تعرف. ونعقد اتفاقاً، بدون كلمة، ألا نتكلم عن ذلك أبداً. وبعد كل شيء، لابد أنها فكرت أن الكارثة لا يمكن تجنبها وأن الوشاية بالطفل لا تفيد إلا بإضافة ألم أكثر إلى التعاسة. ربما فكرتْ أيضاً، إن كنتُ أنا حقيقةً (لكن لا، لا يمكن، هو لا) أن هذا السر الفظيع سيعمل على طريقة اللقاح المضاد للوساوس الذي يقطع خطوتي فيما تبقّى من حياتي. ربما، لأدفع ثمن خطيئتي، أو خشية أن يُكشَف أمري، سأتجنب أن أكون مدمناً للكحول أو للمخدرات أو مجرماً أو مغتصباً أو أي شيء آخر، بشكل عام، من تلك الأشياء التي تخيف (والتي أخافها أنا). ربما حتى أتحول لقارئ، لأن القراءة، بالنسبة لأمي، ضمان لحياة منظمة. ليس الأمر كذلك، بالعكس، بالنسبة للكتابة، إذ سأكتشف مع الوقت أن الكُتّاب، في رأيها ورأي أبي، يثيرون فيهما عداءً لا يمكن فهمه. وأغلب الظن أن أمي انتبهت إلى أنني منذ وقوع الحادثة صرت أفضل من ذي قبل: نادراً ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعترض، أدرس أكثر، أغسل أسناني، أغسل يديّ... أصبحت طبيعياً، ببساطة غدوت النموذج الطبيعي حتى لا يكشف أحدٌ الطفل الغريب الذي يختبئ وراء ذاك الوجه المحايد.

هل تحدثت ماما مع أبي في هذا الموضوع؟ لست متأكداً، رغم أن نظرتها إليّ خضعت لبعض التحوُّل. لقد طورتُ لديّ بعض المجسات النفسية ومن خلالها كنت أقبض على أي تغير في السلوك، مهما كان صغيراً، في كل من يحيطون بي. وفي يوم أحد، عند عودتي من عيد ميلاد أحد زملائي بالفصل، اكتشفت ذلك وأنا أرى كتاباً بعنوان الجريمة والعقاب، لـ دوستويفسكي أيضاً ـ مؤلف الأبله ذاته ـ وتوقفت عن التنفس، لكني كنت قد تعلمت الاختناق دون أن أحرّك أي عضلة في وجهي، بحيث أنني حين رفعت عينيّ عن الكتاب وجدت أمامي المحتضر الطبيعي، محتضر كل الأيام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6

الجريمة والعقاب. هل ستكون النصف الثاني من سيرتي؟ لقد تحدثت هنا سراً عن النصف الأول: الأبله.

دون أن أحقق أي فائدة، ودون أن أفهم أي شيء آخر باستثناء العنوان (ولم يكن العنوان قليلاً بكل الأحوال). لكني لم أتجرأ على لمس الجريمة والعقاب حينها (ولا بعدها، ولا في أي وقت)، إذ فكرتُ أن مجرد الاقتراب من تلك الرواية يمكن أن يشي بي. على أي حال، كان العنوان يوحي بأن الجريمة والعقاب مرتبطان وأنه لا يمكن وقوع الأول دون وقوع الثاني، وهو ما كنت أهرب منه حتى ذلك الحين بمعجزة. "وهو ما كنت أهرب منه"، قلت بسذاجة، كأن العقاب لم يطلني، وكأنه لم يطلني بأقسى الطرق التي يمكن تخيلها، بشعور مستمر بالذنب سمّم حياتي اليومية وبهلع لا يمكن الشفاء منه كانت آثاره الجانبية تتركز في الرئتين وفي البطن (وإلى اليوم، بعد أن فقد الحدث تأثيره، أكتب تحت التأثيرات الملموسة لهذا الهلع). كنت طفلاً مترعاً بالثقوب، ليست ثقوباً يعاني منها الناس هنا وهناك، وإنما ثقوب سوداء يقولون إنها تستحوذ على الكون وتلتهم كل ما يقترب من أطرافها، بما فيها الضوء.

أثناء ذلك، خرجت الطفلة التي كانت من سني من المستشفى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعاشت بعد الحادثة، هذا ما قالوه، لتدخل العبارة في دماغي. كنت أفكر فيها كلما اضطجعتُ وكلما صحوت، على الإفطار وعند الغداء، في الطريق إلى المدرسة وعند العودة منها. كنت أسأل نفسي مع من تعيش، وإن خلّف الحادث عليها عاهة ما، وهي كلمة خرجت من شفتيّ أمي ولم يكن معناها واضحاً في المعجم.

بنيت رواية افترضَتْها طفلةً عمياء (لا عرجاء ولا مشلولة، وهي احتمالات استبعدتها) وغدوت أنا، لسبب من أسباب الحياة، أسيرها. كنت أتخيل مواقف نتعارف فيها (أحياناً بالصدفة، وأحياناً، وأنا كبير، أبحث عنها) وكنت أتخيل أنها وقعت في غرامي. وبفضل العمى، لم تستطع رؤية قناع الحياد الذي استحال إليه وجهي، وبالتالي تزوجنا وأنجبنا اولاد، وكانت تحبني كل يوم أكثر وكل عام كان امتنانها يزيد تجاهي وسارت الحياة دون أن أعترف لها أبداً بهويتي الحقيقية، ولا حتى في سرير الموت، إذ كنت أموت قبلها دائماً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

7

بدأ التلفزيون يهاتف أبي بانتظام، ولم يقل لا، أبداً. كان عمله يكمن في مناقشة أناس كانوا يقرؤون أو يكتبون كتباً. وبسبب التقدير، وربما الخوف، الذي كان ينصت به من يكتبون لأبي، فكرتُ أن الكتابة إحدى طرق التبول في السرير، إذ أن هؤلاء البالغين كانوا يتصرفون كأنه يعاقبهم. وأنا واصلت التبول على نفسي، ربما لأني لم أكن بدأت الكتابة بعد. كنت أنا وأمي نشاهد معاً وعلى الدوام لقاءات بابا. وحين كان يتحدث جيداً عن كتاب، كان يروق لي أن أتخيل أني أنا من كتبته. ربما كانت هذه طريقة لأفترض أنه يوافق على تبولي الذي كان يبدي دائماً تقززه منه وكان يجرحني. كثيراً. حين كان يعود من التلفزيون، لم تعد أمي تقول له إنه كان رائعاً، إنه أفضل من الجميع، ولا عادت تقبّله في فمه لأنهما ما عادا يتبادلان الحب مثل ذي قبل، ما عادا يتبادلان الحب بسببي.

عند حديثه عن أحد الكُتّاب في واحد من هذه البرامج، قال بابا عنه إنه موهوب، لكن ليس لديه شيء ليحكيه. هذا التمييز بين الشيئين حرّكني، إذ فهمت أنه يمنح للشيء الثاني أهمية أكبر من الشيء الأول. ربما كانت تنقصني الموهبة، لكن لديّ ما أحكيه. بدأت حينئذ أقلّب في رأسي فكرة أن أحكي ما حدث لي فوق هذا الجسر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ عامين (أنا الآن في الرابعة عشرة). كان يبدو لي أن الحكاية تقف على مستوى الملخص في ظهر غلاف الكتب الموجودة بمكتبتنا. وبدايةً من تلك اللحظة، كان أحد خيالاتي المتكررة أن أكتب كتاباً أعترف فيه بما حدث وأن يتكلم عنه أبي (بإيجابية) في التلفزيون. كنت أتمتع بمادة طازجة جداً لو فكرنا أن الحدث لم يتوقف عن الحدوث، إذ أنه كان يحدث كل يوم في الحياة، وأحياناً كل ساعة، داخل رأسي. بالإضافة لذلك، كان الهلع من أن يكشفوا سري موجوداً (الجريمة والعقاب). المشكلة كانت كيف تحكي ذلك دون أن تذهب إلى السجن. لذلك، ورغم أن الكتاب كان ينمو بلا توقف في خيالي، قررت أن أؤجل كتابته "حتى أصبح كبيراً". وسأوقعه باسم مستعار، وهي كلمة استخدمها بابا في التلفزيون وتحققت من معناها فيما بعد. كان التفكير في هذا الكتاب (وفي الاسم المستعار) بلسماً لواقع عنيف. حينئذ حدث ما كان منذراً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

8

ما كان منذراً أنه، ذات يوم، أشارت أمي إلى فتاة في سني. سألت، هل تعرف من هي؟ أجبت: لا. قالت أمي إنها الفتاة التي لم تمت في الحادثة. قالت ذلك وصمتت، أعتقد لتتأملني. لم يكن ضرورياً أن تضيف شيئاً آخر، إذ لم أعرف في حياتي إلا حادثة واحدة (وهي كذلك، وهذا ما سأتحقق منه مع الوقت). أي حادثة؟ نطقتُ بكل علامات الهلع المنبثقة من أمعائي. حادثة الجسر، قالت هي بصعوبة فيما تقمع خوفها كذلك، ألا تتذكر؟ منذ عامين، عندما ألقى أحدهم بـ "بلية" على السيارات التي كانت تعبر من تحت الجسر. آه، أجبتُ وتبادلنا نظرة مترعة بالفزع ذهاباً وإياباً.

واصلنا السير أحدنا بجانب الآخر، محاولين الحفاظ على هيئتينا. كنا في طريق العودة من زيارة الطبيب لأني كنت هزيلاً جداً وتعرضت لحدث سمّاه أبواي بـ "أزمة غياب"، وكانت أعراضه فقدان ظاهر للوعي يحدث خلاله أن أتوقف عما أفعله، وأركز نظرتي في نقطة ولا أتكلم. باستثناء المرة الأولى، كان الباقي تصنعاً من جانبي وتحفيزاً لهما، دون قصد. حدث أنه ذات ليلة، وخلال العشاء، كنت أستحضر "الحادثة" بكثافة جعلتني أشرد عن كل ما يحيط بي خلال ثوانٍ. وأمي، مهمومة أمام وجهي الشارد، وبالملعقة جامدةً في الهواء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدثتني دون أن تجد رداً. ومرعوبةً، هزتني لأعود إلى ذاتي. وبعد ذلك، وفيما كنت أتجسس على حوار بينهما، نطق أبي تعبير "أزمة غياب" ليشير إلى ما حدث لي. راق لي أن يكون له اسم، وأن يكون اسماً موحياً. لذلك، ولأنهما كانا مهمومين، جوّدتُ في الطريقة وقدمت لهما على مدار الأيام التالية ثلاثة أو أربعة غيابات دفعتهما ليستشيرا طبيباً كنا الآن عائدين من عيادته، وبعد أن فحصني، استبعد أية أهمية للحدث، وأرجع الأعراض، بالنظر لنحافتي، إلى اضطرابات في النمو.

"أخذها أخوال لها يعيشون بالقرب من هنا"، أضافت أمي مشيرةً من جديد إلى الطفلة الحية، ولاحظت أنها ليست عمياء ولا مشلولة، لكنها عرجاء، وهو الاحتمال الذي أقصيته بالكامل من خيالاتي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

9

بالإضافة لعرجها، كانت الطفلة قبيحة، ما لم يشكّل جزءاً من هذياناتي التطهرية. هذا الصدام بين الخيال والواقع سبّب لي اضطراباً. انظروا لي في غرفتي، جالساً إلى المكتب، بكتاب الجغرافيا مفتوحاً أمام عينيّ. وماما، التي استأذنت من العمل لتأخذني عند الخروج من المدرسة وتضطحبني إلى الطبيب، تعد العشاء. بابا لم يعد من الجامعة. كل واحد في مكانه، كل واحد في عالمه، بسرٍ فظيع يجول بين ثلاثتنا. عليّ أن أضيف للذنب الدائم شعوراً آخر الآن، شعور الضيق النادر لقبح الطفلة، وعرجها.

كلما سمعت صخباً في الممر، قلبتُ صفحة في الكتاب الورقي كأني قرأت الصفحة السابقة. بيدي اليمنى قلم رصاص مبري جيداً أستخدمه لتسجيل الملاحظات في كراسة. ودون أن أنتبه، كتبت في الكراسة كلمات "عرجاء وقبيحة". لو دخلت ماما في تلك اللحظة... أشطب ما كتبته كمن يفجّر لغماً. وزيادةً في الحيطة أنتزع الورقة، أمزقها وأكوّمها بدقة قبل أن ألقي بها في سلة المهملات. ثم أتحقق إن بقي أي أثر لها في الورقة التالية. ولو تركت أثراً، سأنتزعها هي الأخرى أيضاً، وكذلك التي تليها حتى لا يبقى أي أثر. لقد اكتسبت خبرات قاتل محترف، طفل لكن محترف.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حينئذ، بدموع تتساقط على الخريطة، كأنها تمثل نهراً، أتخذ قراراً تحررياً. سأتجه إلى المطبخ وأعترف لأمي بما جرى على ذاك الجسر. سأقول لها إني رحت إلى هناك لأنتحر وليس لقتل أحد. سأشرح لها لماذا كنت أريد الانتحار (لها ولأبي علاقة كبيرة بذلك) وكيف تعدّلت المسارات بسبب كريّة زجاجية عثرت عليها في فناء المدرسة. لو أن صاحبها لم يفقدها، ربما لصرنا جميعاً سعداء، فالحقيقة أني ما كنت لأنتحر. لقد ذهبت في مرات أخرى إلى هذا الجسر بالنية نفسها وعدت منه سليماً. حين أحكي كل شيء لأمي، سأتحرر منه. كنت سأفعل ذلك، كنت قد اتخذت القرار، وبالتالي خرجت من غرفتي وقطعت الممر ووقفت عند باب المطبخ. التفتت هي إليّ، رأت الهلع في وجهي. وقبل أن أفتح فمي قالت لي، أتعرف، ليس ضرورياً أن نحكي كل شيء لآبائنا، فلكل منا أسراره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

10

"لكل منا أسراره"، عبارة معناها أنها لا تريد معرفة شيء. أو أنها تريد المعرفة وعدمها في نفس الوقت. أو أنها تريد المعرفة دون أن تعرف. أو تريد ألّا تعرف وهي تعرف. كل هذه الاحتمالات مرت برأسي، كلها، كلها، أقسم على ذلك، رغم أني لم أكن ولداً ذكياً، لم أكن ولداً يتميز بالقدرة على التحليل، كنت أميل للصبي الأبله قليلاً، أبله بمعنى أنه كان ينقصني بعض الروابط التي تربط الأفراد بالواقع. لا أعرف إن كانت الروابط قد تمزقت عندما تركت "الدحلة" تقع على السيارات أم أن "الدحلة" وقعت على السيارات لأن الروابط كانت ممزقة بالفعل. أشك، لأني كنت أتبول على نفسي في السرير، أني قد ولدتُ هكذا. لذلك، وخشية أن أشي بنفسي، لم أتجرأ على قراءة "الأبله" ولا "الجريمة والعقاب". كنت أعرف مكانهما في المكتبة، لأني حين أقول "بابا" فأنا أقول الترتيب الأبجدي، وكنت أسحبهما سراً، وأقرأ طية الغلاف الداخلية أو ظهر الغلاف، وتحققت من أن دوستويفسكي كان يعاني من الصرع، الذي من بين أعراضه، بالطبع، أزمة الغياب. كانت الحياة محض صدفة. تعثر على كريّة زجاجية في فناء المدرسة في الصباح، وتغدو قاتلاً عند الظهيرة. وهكذا، لو أردتم أن تعرفوا، حقيقةً، فأنا هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي لم يقرأ دوستويفسكي. ثمة آخرون، بالطبع، كثيرون لم يقرؤوا له، لكنني الوحيد الذي في بقي في حالة عدم قراءته، ومع ذلك قرأته بشكل لا يصدق. لأوضح ذلك، هي حالة تشبه من لم يسافر أبداً إلى باريس، ولهذا السبب بالتحديد، لأن قدمه لم تطأ شوارع هذه المدينة الأسطورية، يتمتع بخبرات شديدة الكثافة عنها ويعرف أشياء عنها لا يعرفها حتى من يعرفون المدينة ويعيشون فيها.

"لكل منا أسراره". كانت العبارة تعني أن أمي غير مستعدة لتقاسم هذا الحِمل معي. وحدث حينئذ، نعم، أعتقد أنه حدث حينئذ، بعد هذا الحوار في المطبخ، أن أدركت بطريقة عملية ما كنت أرتاب فيه بطريقة نظرية: أن البالغين أيضاً أطفال، أنهم أشخاص هشون، يصنعون جبهة لمواجهة هجوم الواقع، ليس كما ينبغي عليهم بقدر ما يستطيعون إلى ذلك سبيلاً. ثم بعد ذلك يرتبون أمورهم ليحوّلوا ما يستطيعون فعله إلى ما يجب عليهم فعله. البالغون أيضاً مترعون بالهلع، هلع ربما تعلموا مداراته، لكن بنظرة واحدة مثل نظرتي يمكن الإمساك بسهولة بنظرة هلعهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

11

سأقول لكم الآن كيف كانت عرجاء وقبيحة الطفلة التي لم أعرف اسمها بعد. كانت عرجاء لأن إحدى ساقيها، اليسرى تحديداً، كانت تتحرك متأخرة قليلاً عن اليمنى في رد الفعل، كأنها يجب أن تفكر مرتين. كانت عرجاء لأن هذه الساق كان نصيبها نوعاً من الصلابة غير الطبيعية في السيقان العادية. كانت عرجاء لأنها كانت تجتهد حتى لا تبدو عرجاء بطريقة الجبان حين يتظاهر بشجاعة حجر من الكارتون. كانت عرجاء لتناقضها، لمداراتها، لعدم اتساقها مع نفسها. وكانت قبيحة، ربما، أفكر ولا أعرف، لأن الجانب الأيمن من وجهها من الصدغ وحتى الفك العلوي كان مشقوقاً بجرح يذكرني بثغرة بين الباب وإطاره. ثغرة تعطي انطباعا بأن وجهها قد يفتح على مدخل للجمجمة. كانت قبيحة أيضاً لأن شعر الحاجب في هذا الجانب من الوجه كان يتجمّع في نقطة، كما يركّز المغناطيس برادات الحديد في مكان ضيق.

Telegram:@mbooks90

كانت قبيحة جداً، وعرجاء جداً. ورحت أركز معها شيئاً فشيئاً، بحيث عرفت مدرستها من اليونيفورم الذي ترتديه حين أشارت ماما إليها (بلوزة حمراء برقبة V، وتيشيرت أبيض من تحته تنورة اسكتلندية تشكّل طقماً مع البلوزة). كانت مدرسة لأولاد الناس، قريبة نسبياً من مدرستي العمومية، إذ كان بابا يقاتل في الدفاع عما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو عمومي. وبالتالي، كنت أخرج من المدرسة العمومية إلى المدرسة الخاصة وأتسكع حولها بحثاً عن الطفلة التي بقيت على وجه الحياة. حتى اصطدمت بها حرفياً ذات يوم. تقاطعت خطواتنا ونحن نلّف عند ناصية وسقطتْ على الأرض، وأنا بدلاً من مساعدتها على النهوض، ركضتُ كأنها ستنقل لي عدوى الجذام، جذام وجهها. ولمّا أصبحتُ بعيداً، التفتُ ورائي ورأيت كيف كانت تنهض من الأرض كالبلهاء، ليس بدون الاتكاء على ساقها اليسرى، وإنما حرفياً بتجنبها. أتذكر أني توقفت عند ناصية ولهثتُ كأني قد ركضت في ماراثون داخلي، ماراثون المتعِب فيه ليس طول المسافة، وإنما كثافتها. كنت قد ركضتُ بداخلي، ربما ركضتُ بداخل الطفلة، حتى تعبتُ، وتمزقتُ، وتفككتُ. هل أعطيتها فرصة لترى وجهي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

12

حين عرفت روتينها اليومي، بدأت في ملاحقتها. وعند المساء، في ساعة الخروج، كنت أركض من مدرستي لمدرستها بالإثارة والهلع اللذين يدفعان إلى مسرح الجريمة. كنت أتساءل إن كانت ساقها اليسرى خشبية، إن كان لها عين زجاجية (العين التي يعلوها الحاجب المهشم). كنت أحتاج إلى الاقتراب منها، مقارنة جرحها بجرحي، كأني كنت أنا أيضاً ضحية لحادثة ولستُ صانعها. وفيما كنت أتتبعها، كنت أتخيل أن أحدنا يسير بجوار الآخر، أننا نتكلم، أن ذراعينا يتلامسان، وكنت كلما آلفتُ وجودها، كانت تبدو لي أقل قبحاً، أقل عرجاً، بل وأقل حولاً (إذا كانت لها عين زجاجية). وفي أيام السبت والأحد كنت أتجول حول بيتها، وإن رأيتها تخرج بمحض صدفة، كانت تعاودني كل الأعراض التي عايشها جسدي يوم الحادثة، لكني تعلمتُ السيطرة عليها، وبالتالي لم أعُد أتبول ولا أتغوط على نفسي، رغم أني نعم كنت أشعر ببعض التشنجات وكنت أختنق قليلاً، إذ كانت رئتاي تتجمدان ويسري في جسدي برد كبير أو حر كبير دون أن أعرف لماذا يهاجمني هذا أو ذلك.

وذات يوم صادفتها وسقط من تحت إبطها ملف لم يكن مغلقاً جيداً. وحين تحققت من صعوبة أن تنحني، اقتربت منها بقوة وجمعت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأوراق المتناثرة ووضعتها في الملف وسلّمته إليها، كل ذلك في حركات تخلو من أي تناسق. وهي، لمّا شكرتني نظرتْ في عينيّ، وخلال أجزاء من ثانية هي مدة نظرتها الروتينية استحال كل قبح وجهها جمالاً بشكل غامض، مثل مذاق لم يكن يروق لك ثم بدأ فجأة يصيبك بالجنون. لاحظتُ أن جفن عينها اليسرى (التي كنت أظنها زجاجية) به نوع من القطع والتجعيد، وبحذف الإيحاء القبيح من العبارة، كان ذلك يجعل منها مثيرة. شعر حاجبها الناقص منح وجهها إيحاءً بالفرادة. أما الثغرة التي تمتد من تحت الحاجب وحتى الفك، فأعتقد أنها ساعدتني على اكتشاف أهمية الشيء المقطوع. لقد بلغ اضطرابي حد أنّي عند توديعها كانت أعضاء جسدي متفرقة كل واحد منها في جانب، كأنها بلا عقل قادر على تنظيم حركتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

13

أثناء ذلك حدث أمر خطير: انفصل أبواي، أعتقد أني كنت السبب. رحل بابا من البيت وبقيتُ أنا وماما، التي لم تكن تحبني لكنها كانت تشفق عليّ. ولا أنا كنت أحب نفسي، لكني أيضاً كنت أشفق عليها. هل تريدون معرفة الفارق بين الشفقة والحب؟ ابحثوا عنه داخل أنفسكم. إن عثرتم عليه، فأنتم بؤساء مثلي. الشفقة بديل للحب، تكون أحياناً بديلاً طبق الأصل، من هنا يصعب التفرقة بينهما.

كان بابا لا يزال يرتاد برنامج الكتب، وذات مرة تحدث عن رواية بوليسية، وكان يشير إليها أحياناً باسم "رواية جريمة". وتساءلتُ، قلقاً، إن كان اختار هذا الموضوع ليتحدث عني دون حاجة إلى ذكري بشكل مباشر. في ذاك اليوم، حين بدأ بابا بتقديم مداخلته، نهضت ماما عن الكنبة، كأنها مضطرة لفعل شيء، لكنها في الحقيقة كانت قد قرأت أفكاري. كان بوسعها أن تقرأ أفكاري كما كان بوسعي أن أقرأ أفكارها، وبفضل ذلك كنا نتفادى المواقف التي تذكّرنا بالحادثة. ظللتُ أمام التلفزيون للتمويه، كأن موضوع الرواية البوليسية لا يلامسني، وهكذا سمعت بابا وهو يتكلم عن مؤلفة اسمها باتريشيا هايسميث (يا له من لقب صعب) وأوصى بقراءة روايتين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لها: المياه العميقة و هذا المرض الحلو. لم أقرأهما، بالفعل، لم أمسك بيديّ أبداً رواية بوليسية، خشية أن تشي بي، لكني وجدت نفسي في العنوانين وشكّلا جزءاً من سيرتي، مثلما حدث من قبل مع عناوين دوستويفسكي. ألم تكن مياه عميقة تلك الاضطرابات المستمرة التي تحدث في أعماق ضميري؟ ألم يكن مرضاً حلواً هذه الشفقة التي تشعر بها ماما تجاهي؟

كم تمنيتُ، وأنا أصغي لبابا، أن أكون أنا مؤلف تلك الروايات البوليسية! في ذاك اليوم، ليلاً وأنا أتخذ كل احتياطات العالم، بدأت في كتابة سيرة جريمة في كراستي. وخبأتها تحت المرتبة، في منتصف السرير، حيث لا يمكن لأحد أن يتوقع مكانها، واضطجعتُ ونمتُ بسرعة وفي اليوم التالي، وأظنها المرة الأولى في حياتي، لم أبلل الملاءات. كان حينذاك لمّا فكرتُ أن الكتابة طريقة محترمة لمواصلة التبول في السرير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

14

انفصال بابا وماما، رغم أنّه "اتفاق مشترك"، كان مترعاً بالخلافات المتبادلة. تناقشا كثيراً حول الشقة وحول ممتلكات أخرى لم أكن سمعت من قبل بوجودها: أرض في القرية كان بابا يفكّر في بنائها "ليتفرغ للقراءة". لكن المشاجرة الأكثر ثورية جرت عند تقسيم المكتبة. دافع بابا أنها ملكه بنسبة 99% وأن تقسيمها بالنصف، كما طمحت ماما، لا يعني إلا بترها. المكتبة، بالنسبة إليه، كانت بِنية لا يمكن تقسيمها، مثلها مثل عقارب الساعة، وبالتالي لم يكن مستعداً لقبول التفاوض. وذات يوم، في واحدة من مشاجراتهما، طلب من أمي أن تختار "كتدريب بلاغي" الكتب التي تريد الاحتفاظ بها. وماما بدأت تقول هذا الكتاب نعم، هذا الكتاب لا، وهكذا، وانتابني شعور بأنها تختار الكتب التي يعتبرها كتبه. وخلال التفاوض، اقترحت ماما، وأعتقد أنها كانت جادة، تقسيم الكتب كلها وكل كتاب فيها إلى نصفين. كانت المشاجرات تحدث بالليل، حين يظنّا أني نائم. لذلك عرفت أني أنا نفسي جزء من التقسيم. اتفقنا! صاح بابا ذات يوم، خذي كل الروايات البوليسية لكن خذي معها الطفل الأبله!

أقلقني أن أكون جزءاً من الروايات البوليسية، لكن بابا احتفظ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الأقل بـ دوستويفسكي. وبالتالي انصرف عني "الأبله" و"الجريمة والعقاب"، لكن "المياه العميقة" و"هذا المرض الحلو" بقيا. وبقيت المكتبة مترعة بثغرات تؤرق ماما. وماما كانت تقرأ كثيراً أيضاً، لكن ليست مثل بابا. كان بابا يقرأ كأن بينه وبين الكتاب طريقاً زلقة، كأنهما في حالة جماع هادئة (أعتقد أن جماع القواقع يحدث بنفس الطريقة)، رغم أني لا أعرف بشكل حاسم مَن يدخل في مَن. ربما لو كان قد قرأني مثلما يقرأ الكتب، ما كنت ألقيت أبداً "بلية" زجاجية على السيارات. بعد أيام من رحيل بابا، كانت ماما تبكي باستمرار. أعتقد أنها من ذاك الحين توقفت عن القراءة، ولم تعد إليها قط. ولم تعد الكتب تدخل البيت، وكان ذلك بالنسبة لي تنهيدة راحة، لو وضعنا في الاعتبار أن كثيراً من العناوين كانت تهددني. ويوماً وراء يوم، ولا أعرف كيف حدث ذلك، غدت الأماكن الفارغة بالمكتبة ملحوظة كفراغ، فبدأت ماما تستغلها بوضع مجموعة من الأفيال بخراطيم مرفوعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

15

يمر الوقت وأبلغ السادسة عشرة. لقد عرفت أن الفتاة الناجية من الحادثة تسمى إيريني وأنها تسير بساق صناعية، لكنها ليست حولاء. منذ فترة نلتقي بشكل متكرر، هي تقول إننا مخطوبون، ما أسمعه بمزيج مضطرب من الرعب والمتعة. أحتفظ بالعلاقة سرية لأني أخشى ما ستفكر فيه ماما إن عرفت. تعيش إيريني مع أخوال لها، رحبوا بها ما إن صارت يتيمة كأنها ابنة لهم. لقد حكت لي عن الحادثة التي فقدت فيها أبويها وأخاها، بالإضافة لساقها اليسرى. تقول إنهم اضطروا لإعادة تركيب وجهها، وإنها حين يكتمل نموها سيجرون لها عملية تجميل (عملية أخرى، بعد أن أجرت أربع) من أجل إخفاء ندبة في الوجه لتبقى نكط غير ملحوظ. سيصححون لها كذلك الجفن الأيسر والحاجب. لديّ شعور بأنها تخبرني بكل ذلك كوعد، وبالتالي أشعر بالمرارة وأجيبها بأنها جميلة جداً هكذا وأنها لا تحتاج إلى عمل شيء.

كيلا أتبول في السرير، واصلت كتابة قصة جريمتي. الأدق أني أكتبها، أمزقها، وأعيد كتابتها، إذ كلما ملأت كراسة مزقتها خشية أن يكتشفها أحد ثم أعود للبدء في كراسة أخرى أمزقها بعد ذلك. دائماً أبدأ فيها، كأنها تتكرر في كل أيام حياتي. لكن كل رواية تختلف عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأخرى قليلاً، ورغم أن الأحداث لا يمكن تغييرها، إلا أن طريقة نظري تتغير مع مرور الزمن. أكتب ليقرأني أبي، رغم أنه لم يقرأني بعد.

في تلك الفترة تنطق أمي ذات يوم بمصطلح "مَرَضي" لتشير إلى أمر غامض يخص أبي. ثم تغدو هذه كلمة أتبناها لوصف ملمح من شخصيتي. لو لم أكن مرضياً، ما كنت لأصبح خطيباً لفتاة دمرتُ حياتها بعنف. ثم أنتقل من هذه الكلمة لأصل، كانتقال طبيعي، إلى كلمة أخرى: سايكوباتي. وأتساءل: هل سأكون سايكوباتي من هؤلاء الذين يطلون علينا من التلفزيون من آن لآخر ويستولون على انتباهي بإفراط، في محاولة لاكتشف بقلق بعض ملامحهم في شخصيتي. على أي حال، ليس بوسعي أن أرفض رفقة إيريني، فأنا بالفعل مغرم بها بشكل "مرضي".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

16

إيريني متدينة جداً. كل عائلتها متدينة. وفي مدرستها الخاصة للمدللين والمدللات يعتنون كثيراً بالدين. تعترف كل سبت، وكل أحد تواظب على القداس. لا تفهم عدم تديُّن عائلتي ولا أنا أعرف ماذا أقول لها عن ذلك، إذ أنه عدم تديُّن غير مقصود. الرب لا مكان له في حياتنا، هذا كل شيء. وحين تعرف أني غير معمّد ولا تلقيت المناولة الأولى، يصيبها الذهول. وداخل الذهول يبدو لي ملمح من الإعجاب: ربما يمنحها ذلك أملاً في أن تغيرني.

ولأن الدين يحرم عليها القيام بـ "أعمال نجسة"، لم تسمح بأن أقبّلها في فمها إلى الآن. لا تمانع، في المقابل، أن ألمس ساقها الصناعية. أفعل ذلك عادةً في السينما. أجلس إلى يسارها وبعد بداية الفيلم بقليل تنسحب يدي اليمنى إلى حافة تنورتها وأتحسس على ركبتها والجزء الأعلى من فخذها الصناعية. وحين أتجرأ على تجاوز الحد الفاصل بين الصناعي والطبيعي، تبعد يدي بحزم. إذا كانت ساقها الصناعية تثيرني، فماذا سيحدث لو لمست ساقها الطبيعية؟

أعود إلى البيت متوتراً دائماً من الإثارة الجنسية، أظن أن وجهي يبدو مغيباً، فتسألني أمي أين كنتُ. كنت مع أصدقاء، أجيبها قبل أن أحبس نفسي بغرفتي أو بالحمّام لأستمني. أصدقائي أربعة أو خمسة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من زملاء الفصل وهي تعرفهم، ودخنت معهم سجائري الأولى ولم أشعر بالراحة. كذلك لا أحب الكحول ولا الحشيش، رغم أني أحياناً لا أجد منه مفراً لأبدو طبيعياً. لست واحداً منهم، لكنهم لم ينتبهوا لذلك. ماما نعم، ماما تعرف منذ الأبد أني لست واحداً منهم وأعتقد أنها مذهولة من قدرتي على التخفي. أضبطها أحياناً وهي تنظر لي بتأمل، كأنها تستغربني، كأني بالنسبة لها ما زلت لغزاً. لكن حين ألتفت إليها تغرب بنظرتها وتقول أي شيء تافه له علاقة بالحياة اليومية. مثل هل ذاكرت ما يكفي وهل رتبت غرفتك. هي تخشى أن تفتح موضوعاً جاداً، تخشى من حوار قد يقودنا إلى الحديث عن "الحادثة".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

17

خلال فترة، وبعد الانفصال، واصلت في رؤية أبي، ليس لمرات كثيرة. نمتُ يوم سبت أو سبتين في بيته وذهبنا إلى السينما معاً ثلاث أو أربع مرات. كان رفضه لي كبيراً حد أنه لم يعثر على طريقة ليؤسس معي علاقة مستقرة. من جانب آخر، حين كفوا عن استضافته في التلفزيون، بدأت حياته في الانحدار. زاد وزنه كثيراً في وقت قليل، وأطلق لحية منحته، بغض النظر عما يرتديه، هيئة المعوزين. وكلما زاد انحداره، زاد كرهه لي، وكان ينتزع من داخلي بكرهه هذا فكرة أنه سيقرأ لي لو واصلتُ الكتابة. تخيُل أبي يقرأ كتاباً لي، خاصة لو كان كتاباً يتناول "الحادثة" ومحيطها الأخلاقي، وهبني سلاماً لا يمكن مقارنته بشيء إلا بفكرة الانتحار ذاتها.

من أجل ذلك، حين أصابه الاكتئاب بعد إيقاف برنامج الكتب التلفزيوني، فكرت بفزع في امكانية أن يتوقف هو أيضاً عن القراءة، كما فعلت أمي. وفي خيالي، لم يكن بيننا رباط آخر إلا ما يربط الكاتب بالقارئ (رباط من يبلل الملاءات بمن يرتب السرير). وسواء هجر هو القراءة أو نفرتُ أنا من الكتابة، سيتمزق هذا الرباط، وهذه الفكرة كانت تجعلني، بشكل عبثي، أعيش في قلق بلا حدود. ولحسن الطالع، اقترح عليه مجموعة من زملاء الجامعة والأصدقاء أن يتقدم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لوظيفة أستاذ كورس، ما شجّعه على حلق لحيته والتخسيس. ورغم أنه لم يسترد وزنه السابق، إلا أنه عاد نوعاً ما كما كان، بمعنى "مَن يظهر في التلفزيون". أقول ذلك لأنه في المدرسة الثانوية، مع بداية الدراسة، كان بعض المدرسين يسألوني إن كنت ابن "من يظهر في التلفزيون"، كأن الظهور في التلفزيون، بغض النظر إن كان الظهور كبهلوان أو جرّاح، وظيفة. كان تعيساً جداً، في النهاية، ألا يظهر في التلفزيون، لكن عوّضه جزئياً حصوله على هدف جديد كأستاذ كورس. كذلك ساعده كثيراً تنظيم "ورش قراءة" في بيته وكان يحضرها، بالإضافة لتلامذته المتفوقين، بعض الكتاب المتضررين من إغلاق برنامج الكتب التلفزيوني. كان مهووساً بفكرة امتلاك تلاميذ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

18

لأني لست قارئاً بالمعنى الصارم، أجهل ما تعنيه القراءة بالتحديد أو ما عواقب التوقف عنها. لكني نعم أعرف أن أمي، بمرور الوقت، تحسنت بهجر القراءة. وبعد تجاوز لحظات الألم الأولى، عادت إلى الحياة بطاقات أكبر مما سبق. وبين ليلة وضحاها، بدأت أصوات الموسيقى ترن في البيت، خاصةً الموسيقى الشعبية، وأغاني الموضة، موضة تلك الأيام. وغدت هي شابة، وذكّرتني بامرأة جميلة كانت تأخذني من المدرسة حين كنت صغيراً هكذا، امرأة كان الأولاد الأكبر مني ينظرون إليها بنظرات كانت تخجلني وتوترني. وشغلت الاسطوانات الموسيقية في حياتها ما كانت تشغله الكتب، وحدست أنه في عالم الكتب، مقارنة بعالم الاسطوانات، كان ثمة شيء مؤثر بعمق، شيء، كيف أقول ذلك، مقدس بعمق، أكاديمي بغموض، مكسو بالكامل. مع ذلك أحتاج إلى أن أرتبط بهذا العالم، حتى لو بصفتي كاتباً.

لقد استحالت أمي امرأةً أخرى، لا أعرف إن عادت لامرأة قديمة أم غدت امرأة جديدة، ربما غدت مزيجاً من الاثنتين. وخمّنتُ في الحال أنها بدأت الخروج مع زميل في العمل لم يتأخر كثيراً في المجيء للنوم في بيتنا بضعة أيام في الأسبوع. هكذا صارت الأمور،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأصبحت أشغل في حياتها المركز الثاني. ولأني ظللتُ أقرأ أفكارها (وهي في المقابل فقدت قدرتها على قراءة أفكاري)، انتبهتُ إلى أني حين لا أكون سايكوباتياً، أصيبها بخيبة الأمل (وكان خيراً). في النهاية، كنت صبياً طبيعياً، بمزايا وعيوب أي صبي طبيعي في سني. في البداية، هزتها "الخيبة" قليلاً، لكنها اعتادتها وعاشتها كتنهيدة راحة. ابنها لم يكن مريضاً، لم يكن قد ارتكب أي جريمة (بتعمّد أو بلا تعمّد)، في خيالها فحسب كنت أنا مجرد "متسبب" في حادثة أفسدت حياتنا. وعند إخضاع حكمها لبصيرتها كأم، كانت تشعر بالذنب لأنها تخيلتني ألقي ببلية زجاجية على السيارات. ذاك الذي مرر وجودها، وربما كان سبباً في فسخ زواجها، لم يكن قد حدث أبداً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

19

في فترات السُبات الذهني كانت تحدث لحظات من بصيرة مؤلمة أدرك فيها وحشية حالتي: أنا أخرج مع فتاة مات بذنبي أبواها وأخوها! حينئذ كنت أتصبب عرقاً، وكان ذلك عرضاً سائداً لأزمة خوفي. كيف، وقد تملّكني الرعب من امكانية قراءة الجريمة والعقاب، أن أسقط مع ذلك في غواية الاقتراب من إيريني؟

الآن قد بلغت السابعة عشرة، ومنذ عام وأنا أخرج سراً مع ضحيتي المتعلقة بي بنفس درجة تعلقي بها. ولأن المتواري يشغل مكاناً أكبر من المكشوف، تحذر إيريني أن لديّ سراً وتحاول كشف طبيعته. وذات مرة، تدعوني لحضور بعض التمرينات الروحية في نهاية الأسبوع. تقول لي لن يضرك شيء. فأروح إلى أبرشيتها، أسجّل اسمي، وأقول لأمي إني سأبيت في منزل أحد الأصدقاء. الخلوة الروحية ستكون في مزرعة بضواحي مدريد، تملكها الأسقفية على ما أعتقد، وهناك أجد بيتاً كبيراً قاتماً بغرف لا سقف لها وصومعة. يبدو الجو العام مقبّضاً، إذ تدور الحلقات حول الموت. وليس بوسعنا نحن كمشاركين أن نتحدث فيما بيننا، والأولاد والبنات لا يختلطون كذلك. إيريني وأنا نتبادل نظرات التواطؤ وكل منا في طرف من صالة الاجتماعات بينما يتحدث كاهن عن الخطيئة الأصلية كأنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جرح جئنا به إلى العالم. إنها جرح في طبيعتنا، نتشكّل منه وننقله إلى نسلنا كما ننقل جيناتنا الوراثية. لا يندهش المشاركون في الخلوة من المعلومة لأنهم معتادون على سماعها. لكنها كانت جديدة بالنسبة لي وتذكرني بخطيئتي الأصلية ذاتها، بجريمتي. حين أعود إلى غرفتي، أفكر أني لو تزوجت إيريني، لو أنجبنا أطفالاً، سيرثون الوصمة التي أحملها أنا. والسر، ودون حاجة إلى أن يعرفوه (أو بمعرفتهم له دون أن يعرفوه) سينكشف بطريقة ما في أبنائي وفي أبناء أبنائي. أقضي الليل في سهد ومع الصباح أقرر فسخ علاقتي بـ إيريني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

20

لكني لم أفسخها لأني في يوم الأحد ليلاً، وعند العودة إلى مدريد بعد الخلوة الروحية، أدعو إيريني إلى بيتي. أعرف أن أمي بالخارج لأنها راسلتني بأنها ستنام في بيت خطيبها. هي المرة الأولى التي ننفرد فيها إيريني وأنا في شقة. هي اتصلت بأخوالها وتحججت بذريعة ما أنها ستصل متأخرة. خطونا بالممر بكل نجل الدنيا وبكل لهيب المرة الأولى. وفيما نقترب من الصالة، أراجع ذهنياً أجزاء ساقها الصناعية، وكنت بحثت عنها على الإنترنت. وراء طبقة بلاستيكية أو قشرة تحاكي مواصفات ساق طبيعية، ثمة هيكل صلب وتيتانيوم ورضفة عظمية تساعد على حركة الركبة ووظائفها. هي تكنولوجيا مستوردة من الولايات المتحدة حيث، بفضل ضغوط المحاربين القدماء، تقدم البحث العلمي حول الأطراف المستعارة بخطى هائلة. تتكئ ساق إيريني على ما يسمى "بداية ثغرة الامتصاص" وهي ما تجبر الجزء الصناعي على الالتصاق بطرف العضو الطبيعي بدون أربطة أو أحزمة تقليدية. وبوسع مستخدميها أن يقوموا بأغلب حركات الساق الطبيعية، حتى لو كان ذلك بعجز يُترجم بعرج واضح.

لقد لامست هذه الساق الباردة مرات كثيرة في السينما، تحسستها حد الإنهاك، وبلغت أصابعي بتكرار الحد الفاصل بين التكنولوجيا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والجلد... أشك أن إثارتي كانت خرافية، لكن لا يمكنني إنكارها أو قمعها. وأحياناً، عندما أستمني، أتخيل إيريني بكاملها، من الرأس وحتى القدم، صورة صناعية شبه كاملة من فتاة حقيقية. وتروق لي الفكرة، تجذبني بطريقة مَرضية، كأني أنا نفسي، في وقت الحادثة، قد مُتُ، واستبدلوني بنسخة من كائن بشري ملتصقة، كعضو مستعار، بالذاكرة. أفكر في كل ذلك مثاراً فيما نخطو نحو صالة البيت، مكان لا يزال به كرسي هزاز كان أبي يقرأ عليه "الأبله" و"الجريمة والعقاب"، عملان يتحدثان عني، عن ابن، للمفارقة، يعرفه بالكاد. انظروا كيف أخطو، قاتماً، بعضوٍ منتصب، عضوٍ حزين تحت البنطلون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

21

في المكان ذاته، في الصالة، بدأنا في تبادل القبلات؛ في الواقع، وبسبب اضطرابي، أخذت هي المبادرة، كأن الخلوة الروحية هشّمت دفاعاتها أمام "الأفعال النجسة". ولأنها أقصر مني، تضطر لرفع وجهها لتبحث عن فمي، وتذكرني إيماءتها بعصفور وليد في العش حين تأتي أمه بالطعام في منقارها. وأنا أُدلّي لساني للخارج وأزحلقه بين شفتيها دون أن تواجهني - للمرة الأولى منذ بدأنا التقبيل - أية مقاومة. فيما يدها اليمنى، المعلقة حول رقبتي، تضغط رأسي للأسفل، وذراعها اليسرى تحيط بخصري وتجذب جسدي نحو جسدها. كل واحد منا يلتصق بالآخر، ولابد أنها تلاحظ حجم عضوي في بطنها. لأول مرة أكون مع فتاة في هذا الوضع وهي المرّة الأولى لإيريني أيضاً. لو انتبهتُ إلى أن نقص الخبرة هذا نوع من العمى، فذلك لأني في هذه اللحظات أعيش حياتين: حياة من يرى ومن لا يرى. في حياة من يرى أتحمل عبء الأعمى، وفي حياة من لا يرى، أتحمل عبء الرائي. هكذا، ودون أن أتمكن من الاندماج التام، لأني لا أعرف، أرفع تنورتها وأبدأ في استكشاف فخذيها الاثنين، وأحدّد الفروقات بين الأيمن والأيسر. وبعد أن أمشط هذه المنطقة، معتبراً من غير المناسب الاقتراب بأصابعي من ردفيها، أسحب يديّ من هناك وأتحسس الآن،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من تحت البلوزة، نهديها، ولم أكن لمستهما منذ بداية العلاقة. لست متأكداً من المتعة، أبدو أكثر كمفتش أراضٍ أكثر مني عاشق. وهي، في المقابل، لا تعاني من هذا الانقسام. أنتبه لذلك لأني من آن لآخر أفتح عينيّ وأحدق في استسلامها الذي طالما حلمت به والآن، على العكس، يخيفني.

كل قواها تبدو مركّزة في جسدها، كل ما فيها جسد، كأنها، على عكسي، استطاعت أن توقف وظائف عقلها مؤقتاً. أثارني ملمس نهديها لدرجة أن أقذف دون سيطرة في اللباس. وأتراخى في الحال، كبناية مقوضّة، ودفء السائل المنوي يسرب لي شعوراً غريباً بالذنب، ذنب من بلل الملاءات. وحينئذ، تفيق إيريني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

22

كنت أقول إن إيريني تفيق وأنا أطلب منها، مضطرباً، أن تعذرني لأني قذفت (أو لأني تبولت في السرير، أو لأني أنهيت حياة أبويها وأخيها، أو لأني المسؤول عن ساقها الصناعية، كيف أعرف لماذا أطلب المعذرة من فتاة هي الأولى في حياتي وربما تكون الأخيرة؟). تضحك إيريني وتقول ألّا أشغل بالي، فهي أيضاً لديها ما تخفيه: " لا تهتم فأنا أيضاً لديّ ما يخصني". أستنبط أنها تمتعت بأورجازم، وأني من أثرتُ انفجارها لكني في نفس الوقت كنت بعيداً عنه. بطريقة ما، ودون أن أنتبه، أصبتُ في ما تحتم عليّ فعله. على أي حال، إن لم تكن تتمتع هي بخبرة أكبر مني فهي أجرأ مني على الأقل، إذ تسألني الآن عن غرفة نومي، حيث أسوقها وأنا لا زلت مذهولاً وحيث لا أعرف بوضوح كيف، إذ أن ذاكرتي مترعة بثقوب ليفية، وانتهينا عاريين في السرير. هي سألتني قبلها عن أمي وأنا قلت لها إنها لن تعود حتى اليوم التالي. ثم فكت الساق الصناعية ووضعتها على الأرض، بعيداً عن رؤيتي، حيث وضعت حذاءها.

Telegram:@mbooks90

أشعر بخوف فظيع، خوف أكبر من الإثارة لأني أعتقد أني ألقي في الهواء بلية زجاجية وأتساءل مَن سأقتل في هذه المرة، هي أم أنا، في حالة لم أقض أيضاً على حيوات أشخاص آخرين مكانهم الآن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خارج غرفة النوم. هي، إذن، من تفعل وتتوقف، كأن أحكامها السابقة حول "الأفعال النجسة" قد اختفت فجأة، دون سبب، ما استغربته جداً؛ أفكر دائماً في منطق الأشياء. هي من تعبث بجسدي، أكثر ما أعبث أنا بجسدها. هي من تقودني، من تقول لي تعالى فوقي، من تقبض على عضوي وتقوده إلى قبلته. ورغم أني ألاحظ سريعاً غياب ساقها، نعيش في اتحاد هذياني حد أني لا أميز أعضائي من أعضائها. ماذا بك؟ تسأل لأنها حسّاسة أمام تحفظي. الحمل، أقول لها. لا تقلق، كانت عليّ الدورة حتى هذا الصباح، تقول. أجهل إلى أي درجة هذه الملحوظة علمية، لكنها تحررني لبضع ثوانٍ، حتى أقع في قلق أني أفض بكارتها، ما يجعلني أفكر في الدم. الدم! أقول الآن. أي دم؟ تسأل هي. دم البكارة، أقول أنا بشعور عبثي.

فقدتها في الحادثة، تقول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

23

أثناء ذلك، أفوز في المدرسة بجائزة أدبية على نطاق قومي ترعاها شركة كوكا كولا. تنافست قصتي مع أكثر من ثلاثة آلاف مخطوطة من إسبانيا بأسرها. أتلقى الخبر بالدهشة نفسها التي تلقيت بها أورجازم إيريني، وكذلك بغياب أي رد فعل. واضح أني فعلتُ شيئاً خيراً من جديد، لكن ليس بوسعي أن أعرف ما هو. ومن خجلي، أداري خبر الجائزة عن البيت، كأن الكتابة بالخارج صيغة أخرى للتبول في السرير. مع ذلك، أشرد مع فكرة أن يعرف أبي. أن يعرف وأن يقرأ القصة الفائزة، قصة رجل لا يحب ابنه، وابن، في المقابل، لا معنى لحياته إلا في البحث عن رضا الأب. ثمة تبول كبير. ربما، من بين كل تبولاتي، هذا التبول بالذات أكثر ما يثير اشمئزازه، ما يؤكد له حقه في رفضي.

الحال أنه ما بين أشياء وأشياء أخرى تعرف أمي خبر الجائزة وتطلب مني النص. تقرأه أمامي وتبكي. وأنا أحافظ على جمودي الخارجي، لكني أحترق من الداخل. أحترق من الخجل ومن الرضا ومن الهلع، ومن ماذا أحترق كذلك؛ من أشياء كثيرة: أحترق من الغرور، ومن شعور بالانتقام المُنجز، ومن الشفقة على نفسي، لأن هذا الصبي الذي لا يحبه أبوه ينتحر في القصة عند عودته من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المدرسة، إذ يرمي نفسه من فوق جسر يطل على طريق سريع. أحترق أيضاً حينها من الخوف من أن نتعرف أمي على الجسر. وأشعر تجاه شخصية القصة بالألم الذي شعرت به في تلك الفترة اتجاه نفسي. غير أن أمي لم تربط بين جسر الطفل المنتحر في القصة وبين جسر الطفل القاتل في الحقيقة، لم تنتبه إلى أنه الجسر نفسه، ولا أنه الطفل نفسه. هل يعني ذلك أني حر؟

حين تنتهي من قراءتها، تجفف دموعها وتقول جعلتني أبكي ويا لها من قصة عظيمة ويجب أن أرسلها لأبي وأنا أقول لا، أشعر بالخجل، وهي تقول لا نخجل ولا طفل ميت (ولا طفل ميت!) إن أبي سيشعر بالفخر وتهاتفه في الحال وتقول له الخبر وهو يقول إنه قد قرأها في مكان ما، لكنه لم يتوقع أنها قصتي، كأن اسمي وألقابي، حين يذكرون في حدث سعيد، يتحتم أن يُنسبوا إلى شخص آخر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

24

يوم سبت. أروح لتناول الغداء في بيت أبي. أرسلت له قصتي منذ أيام دون تلقي أي رد. أصل مبكراً لنفاد صبري لمعرفة إن كان قرأها، وأفاجئه في وسط ورشة قراءة. ثمة تسعة أو عشرة تلامذة بين الكنبة والسجادة والكراسي القابلة للطي. أقعد في الأرض وأتأمله وهو يتحدث ويتحرك. بين يديه كتاب يعملون عليه، ولحسن الطالع ليس لـ دوستويفسكي، ولا رواية جريمة. عند تأمله أمام جمهوره، أتذكر حين كنت أراه أنا وماما في التلفزيون. يحضرني كم بدا لنا عظيماً في البداية وكم كان صغيراً بعد ذلك. لقد خلق منه التلفزيون رجلاً يحتاج إلى مستمعين: يتكلم فحسب من أجل متعته. يقول الآن بإيماءة تهكم لتلامذته: أسوأ ما يمكن أن يحدث لرواية أن تكون مكتوبة جيداً وأن تُقرأ جيداً. يحمّر وجهي من الخجل لأن هذا تقريباً ما قالوه عن قصتي عند منحها الجائزة: إنها مكتوبة جيداً ويمكن قراءتها جيداً.

بانتهاء الورشة، يسحب كل واحد كرسيه ويطويه ويضعه في خزانة ملابس منحوتة بحائط الممر. ثم ينصرفون جميعاً باستثناء تلميذة لا يقدمها لي أبي لكنه يخبرني أن "سارة ستتغدى معنا". سارة، وهي بوضوح خطيبته، أكبر مني بست أو سبع سنوات على الأكثر. وإن كان يبهرها منذ قليل بخطابه الأدبي، فهو الآن يركز على إبهارها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمهاراته المطبخية. وأنا أتساءل لماذا أحتاج إلى أن يخبرني هذا الأبله برأيه في قصتي فيما أسمعه يتحدث مع سارة عن سر المعكرونة بفواكه البحر.

وخلال الغداء يوجّه حديثه في النهاية لخطيبته ليخبرها (حتى لو بابتسامة ساخرة أكثر منها فخراً بي) أني فزتُ في مسابقة قصص كوكا كولا. وهي، بفم ممتلئ، تندهش وتنظر إليّ كأنها تطلب معلومات إضافية. وبوجه مثير للشفقة، كطفل يستعرض مهاراته أمام الكبار، أخبرها أنها مسابقة قومية تقدم لها أكثر من ثلاثة آلاف مخطوط. وهي تجيب بتقدير وتسأل أبي عن رأيه في القصة. فيقول: "ليس لديّ فكرة، فأنتِ تعرفين أني لا أقرأ نصوصاً فائزة بجائزة".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

25

أبي لا يقرأ النصوص الفائزة بجوائز، نصوص مولودة من الخطيئة الأصلية للتجارة، نصوص يقرأها أي أبله لأن أي أبله كتبها. ما إن بدأت الكتابة حتى تحولت إلى أكثر ما يبغضه هو: مؤلف ناجح. هل تعتقدون أني قادر على إبداء أي رد فعل أمام كلماته؟ هل تظنون أني أنهض من المائدة بعنف وأنزل إلى الشارع بعد أن أسب وألعن؟ لا شيء من هذا، يشتد قناع وجهي المحايد قليلاً وأواصل أكل المعكرونة الصغيرة المقرفة التي طبخها رجل أناديه بـ بابا ويناديني بـ ابني.

وما إن ننتهي من غدائنا، أهرب من البيت بذريعة أني تواعدت مع أصدقاء. والحقيقة أني تواعدتُ مع إيريني لكن متأخراً، إذ تخيلتُ، كصبي أبله، غداءً طويلاً بحوار يدور حول مزايا قصتي. إلى الآن يبدو لي مستحيلاً أنه لم يقرأها. ما من أب، في ظني، يمكن أن يتصرف بهذه الطريقة. لقد بدت له إذن مجرد قمامة وهذه طريقته للتعبير عن ذلك، أو أنه تعرّف باستياء على البطل، هذا الرجل الذي لا يحب ابنه... وحتى أقول كل شيء، فبغض أبي لي لا يدخل في تصنيف الحب وعدم الحب. فأنا أرى أن نوع المشاعر التي يحسها ناحيتي هي مشاعر حب تشبه علاقة الموت والحياة: تكلّلها وتنهيها في الوقت ذاته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين ألتقي بـ إيريني، بعد أن أتجول كمجنون لثلاث ساعات لأخفف من غضبي، تسألني برعب إن كان حدث لي شيء. "لماذا؟" أجيبها. "أنت ممزق"، تقول هي. فأشرح لها، أشرح لها أني تغديت في بيت أبي ليقول لي شيئاً حول قصة الرجل الذي لا يحب ابنه وحدث أنه لم يقرأها حتى. فتقبّلني وتقول لي ألّا أهتم، إن أهم شيء أن أقبل أن نصيبي من الحياة أب غريب وألّا أنتظر منه أكثر مما يمكنه منحه. تقع كلماتها بتأثير بلسم فوري، وفي الحال أنسى الموضوع. نتحدث مرة أخرى عن القصة، لقد أعجبتها جداً، مثل أمي. إنها مكتوبة بطريقة مذهلة ومقروءة بطريقة جيدة جداً، هكذا تنهي كلامها دون أن تعرف أنها تقتلني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

26

أنا وإيريني أدمن كل واحد منّا الآخر. نستغل غيابات أمي الثابتة
Telegram:@mbooks90
لنتواعد في البيت، وهناك نشرع في معارك عاطفية نفنى بداخلها. وبكسر حدود يفرضها علينا الارتياب أو العفة المميزة للقاءات الأولى، غدا كل واحد منا يستكشف جسد الآخر بنهم بلسانه وشفتيه، متغرفاً على طعم عصيره وحجم تضاريسه وعمق أغواره. وبعد كل مرة من النشوة، نتبادل النظر مأخوذين، كأننا نسأل أنفسنا إن كانت طبيعية طريقة فعل الأشياء.

عندما أذكّر إيريني بوساوسها الدينية، تضحك ونعاود البدء، إذ أن الموانع التي كانت تكبح إثارتها من قبل هي ما تحفزها الآن. يبدو أكذوبة أن بعض أعضاء جسدي تستمر في موضعها بعد أن تمرر عليها فمها الشره. ولا نتعجل الخروج حين يكون أحدنا بداخل الآخر. أعرف جسدها شبراً شبراً، سنتيمتراً سنتيمتراً، لكني لا أتمكن من استحضار تضاريسها حين أبقى بمفردي. وفي نوع من التكفير عن الذنب، من تصحيح الخطأ، من التوبة عبر فعل يحتوي متعة متطرفة، ألحس مكان عضوها المبتور حتى أنهك. وأطلب منها أحياناً ألا تفك ساقها لأتذوق كل تنويعات العشق الممكنة، وهي لا تقول لي لا. وحين تبلغ النشوة وتقع في نوع من السبات يذكرني، بتعبيرها، بسبات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدمني المخدرات، ألعب بفك العضو وتركيبه.

ليست الساق فحسب، إنما اللباس والسوتيان والتنورة، يروق لي جداً أن ألبسها وهي تحب أن ألبسها. وحينئذ أتذكر أبي وخطيبته، المدعوة سارة، وأقول لنفسي من المستحيل أن يشبعها كما أشبع أنا إيريني وهذا يمنحني أيضاً متعة سوداء لأنها متعة ملأى بالغضب، بل والكراهية، كأن في فعل المضاجعة، كما في فعل الكتابة، نمارس بغرابة نوعاً من الانتقام. لا تكف إيريني عن تشجيعي على مواصلة الكتابة، تراني كمؤلف شهير سيضطر أبي، عاجلاً أم آجلاً، إلى قراءته. وربما، كما أظن، لن يجد مفراً من الحديث عنه (بتقدير) في واحدة من ورش قراءات يوم السبت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

27

تأتي أمي فجأة ذات يوم وأنا وإيريني في السرير. ولأننا غارقان في ممارساتنا الحميمية، لا نسمعها وهي تدخل ولا وهي تتقدم في الممر. وفجأة أيضاً، تُفتح ثغرة في عالمنا المغلق وهذه الثغرة لها شكل باب وفي وسطه ثمة امرأة هي أمي، أحدق فيها أنا وإيريني في فزع فيما تتأملنا هي في رعب. بتوقف كل وظائفي المخية، لن أعرف تحديد مدة توقف الزمن، ربما بضع ثوانٍ، بضع ثوانٍ هي طعم الأبدية ونسيجها. تحدق أمي أولاً في وجه إيريني، ثم في ساقها الناقصة، ثم تنظر نحوي بتعبير هلع، إذ سقطت من فوق عينيها كل الغشاوات وما من طريقة أخرى لتخدع نفسها حول مرتكب "الحادثة". لقد انفتحت بقوة ستارة كانت تداري وراءها سر حياتنا.

بمرور هذه اللحظة، انغلق الباب من جديد، غير أن الفقاعة غدت مثقوبة وأنا كذلك. وبنظرة جانبية، ألاحظ جلوس إيريني واستعادتها لساقها من جانب أرجل السرير، وأرى كذلك أنها، بدلاً من تركيبها، مضطربة لأنه قد حدث شيء أكبر مما حدث، تقفز قفزتين بقدم عرجاء، وبساق معلّقة بيد يسرى بينما تسترد باليمنى ملابسها المبعثرة في الغرفة. حينئذ يُفتح الباب من جديد، هذه المرة بأعنف الطرق الممكنة، ومن جديد تظهر أمي، الآن بغضب جم،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هيستيرية، مجنونة، وتشرع في الصراخ. في البداية تصرخ فيّ: أنت مريض يا بني، أنت مريض، مريض، مريض! ثم في إيريني: هل تعرفين من هذا؟ تصرخ وتشير إليّ، هل تعرفين من هذا المنحط الذي تنامين معه في السرير؟ وإيريني التي تحاول التوازن على ساق وحيدة، وربما تتوازن فوق وجودها ذاته، تصرخ بدورها وتقول: نعم، أنها تعرف، أنها تعرف ذلك منذ الأزل، وتقول لها أن تخرج الآن من الغرفة وأن تتركنا بمفردنا. وحين تخرج أمي، أسألها برعب ما الذي تعرفه، فتأتيني قفزاً حتى السرير وتنفجر في البكاء وتقول إنها تعرف كل شيء. لكن، كيف؟ أسألها مصعوقاً، كيف تعرف ذلك. تقول: لأنك لا تتحدث عن شيء آخر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

28

حين خرجنا من الغرفة، كانت أمي قد غادرت البيت، لكنها تركت ورقة مكتوبة. تقول إنها لا تريد أن تراني، إنها تخاف مني وتشعر بالشفقة، إن عليّ أن أرحل في الحال إلى بيت أبي. وإيريني، من جانبها، تقبّلني بين دموعي وتقول لي ألا أقلق، فـ "الحادثة" أمر بيني وبينها ولا تهم أحداً غيرنا. وأنا أسألها مرة أخرى كيف تحققت من مشاركتي في الحادثة، وهي كررت أني من قلت لها، أني كنت أقول لها ذلك دون أن أنتبه كلما سألتها إن كانت قد غفرت لقاتل أبويها وأخيها، إن كانت قادرة على مقابلته، الحديث معه، إن كانت لا تحمل له أي ضغينة. وعند رؤيتها الآن، بعيداً عن احتقاري، تحبني أكثر من ذي قبل، أشعر نحوها بنفور يؤذيني.

نحن الآن في الشارع. وكالعادة، تتعلق بذراعي حتى تخفي عرجها. حين أنتبه إلى أن الناس ينظرون لنا، أتذكر أن إيريني دميمة وأن جزءاً من دمامتها سببه عاهة تشق خطاً بوجهها وتقطع حاجباً. حينئذ أكرر أسئلة أمي عليّ: كيف استطعتُ؟ كيف كنت قادراً؟ أي مرض أصاب رأسي؟ نحن في محطة أوتوبيس يؤدي إلى بيتها، أقول لها أن تسامحني، لا أستطيع مرافقتها إذ أشعر بتعب شديد، وتقول لي ألا أضايق نفسي، ولأنصرف، لكن ألا أخنق نفسي لأن كل شيء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيكون على ما يرام وربما كان من الأفضل كشف الأوراق في النهاية. ينطبع في ذهني مصطلح "كشف الأوراق"، إذ يصف بأفضل طريقة ما حدث. لكن، إن كنت من قبل أحتقر نفسي لأني أحبها، فأنا الآن أحتقر نفسي لأني توقفت عن حبها.

الليل قد حلّ، وبعد أن سِرتُ دون وجهة محددة حد الدوار، ضغطت على جرس بيت أبي، ففتح لي الباب مذعوراً ودعاني إلى الدخول. كان مع سارة، خطيبته، يشاهدا فيلماً أبيض وأسود. أقول له إن خلافاً حدث بيني وبين أمي. لماذا؟ سأل. لأنها ضبطتني في السرير مع فتاة، أجبته. وحين رأيت تعبير الاستغراب على وجهه ووجه خطيبته، قلت عبثياً إن الفتاة عرجاء. ثم، لأنهما كانا يتأملاني بصيغة استجواب، أضفتُ أنها ينقصها ساق. تبادل أبي وسارة النظر حينها، مضطربين، ثم فجّرا، في نفس واحد، قهقهة أرعبتني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبي وأمي يتحدثان بالتليفون، لكنها تقتصر على إخباره أنها مستاءة مني وأنها تفضّل ألا تراني لفترة معينة. لقد أخفت عنه هوية الفتاة التي بلا ساق وضبطتني معها في السرير. هل تحميني؟ هل تحمي أبي؟ هل تحمي نفسها؟ ليس عندي فكرة، لكن لا يروق لي كليةً حدث أن يبقى أبي خارج السر. يذكرني ذلك بأيام من طفولتي كانت أمي تداري فيها عليه أني تبولت مجدداً في السرير. لا أنسى كيف كانت تلمّ الملاءات، كيف تطويها، كيف تحملها في الخفاء إلى المطبخ... أتذكر أيضاً ارتباكي وتأرجحي بين الامتنان السطحي والغضب العميق، كأنها تسرق تلك التبولات من ذاك الذي كانت موجهةً إليه.

عدت إلى الغرفة التي نمت فيها نهايات الأسبوع الأولى عقب انفصال أبويّ وصارت الآن مترعة بكتب مصفوفة على الأرض. أضطر إلى فتح طريق بينها وسحبها من فوق السرير. أتجاوز جزءاً كبيراً من أرق الليلة الأولى بحثاً عن "الجريمة والعقاب" و"الأبله"، كتابا سيرتي، إذ أشعر بأني كبرت فجأة وأن بوسعي الآن أن أقرأهما. لكني لا أعثر عليهما، لا تقع عيناي على أي منهما في هذه الفوضى الجديدة على شخصية أبي، أو على الذكرى التي أحتفظ بها عنه.

في اليوم التالي ألتقي بـ إيريني وأقول لها لا يمكن أن نستمر معاً.

Page 66 / 75 29

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أداري عنها أني لم أعد أحبها، خاصة أني توقفت عن حبها حين تحققت أنها لا تزال تحبني بعد "كشف الأوراق". أروح لأفسخ العلاقة بأكثر الذرائع البائسة التي استخدمها الرجال طوال حياتهم: أنا لا أستحقك، لن أستطيع النظر في وجهك وأنا أعرف ما أعرف وأنا أعرف أنك تعرفين ما أعرف، إلخ. وفيما كان فمي يطلق البراهين كما تطلق أفواه الزواحف سمومها، أدرك أني ألقي في الهواء بلية زجاجية مرة أخرى وأنها هذه المرة تعرف وجهتها المحددة: إيريني. بطريقة ما، أنا أقتلها لأتخلص من الشاهد الأخير على جريمتي. لكن ذلك لا يحررني، أو أنه نوع من التحرر وفي الوقت نفسه عقاب (ما يعقب الجريمة؟)

لم يعد أبي إلى البيت، لكن سارة موجودة، وتسألني إن حدث شيء. أقول لها لا، وأحبس نفسي في غرفتي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

30

بعد أربعة أيام من البقاء في بيت أبي، ألحظ تغيراً في طريقة نظره إليّ، كأنه غفر لي أن أكون مؤلف كوكا كولا، بل وكأنه أحبني فجأة. ربما فتنه حدث أن أضاجع فتيات بلا سيقان. الحقيقة أنه يتمتع بالتباهي بـ "ابن غريب" أمام سارة. وذلك يروق لي من ناحية ويحزنني من ناحية أخرى، إذ أن أكثر ما وددته في الحياة أن أكون عادياً. أظن أن علاقته بي تشبه علاقته بكتبه، لأنه يقدّرها على أساس فرادتها. لقد اكتشف، في النهاية، أن له ابناً مثل من يكتشف في مكتبته كتاباً مثيراً للاهتمام، اكتشفني كقارئ، وكان يجهل وجود هذا الكتاب. لهذا الاكتشاف علاقة غير مفهومة بالتمتع بخطيبة أكبر مني بسنوات قليلة. والتعايش مع كلينا، مع الخطيبة وأنا، تحت السقف ذاته، أثار فيه نوعاً من الإثارة تبدو لي قاتمة، دون أن أعرف لماذا.

وذات يوم أجلس في غرفتي لأكتب قصة عن ولد يتيم، فيدخل أبي (دون استئذان، بالمناسبة). يسألني، ماذا تفعل؟ أجيبه، أكتب قصة. يسأل، عن ماذا؟ أجيب، عن يتيم. هل هي قصة ذاتية؟ يسأل بابتسامة متهكمة. ذاتية ما يكفي، أجيب بخجل. يحدق فيّ أبي بلا خجل فيما يدور برأسه شيء. وأنا أحاول، دون تحقيق ذلك، أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبادله التحديق. لديّ انطباع بأنه شرب أو أنه تحقق من شيء حولي وأثار اهتمامه (هل حكت له أمي شيئاً).

بعد برهة، وبعد أن ألقى نظرة على كتبه المصفوفة على الأرض، يقول: هل تقرأ كثيراً؟ أجيبه، لا أقرأ أبداً. يسأل، ولماذا تكتب؟ أجيبه، لأنك تقرأ، لو كنتَ سجّاناً لكنتُ سجيناً. تقتمُ عينا أبي كأن سحابة سوداءِ توقفت على جفنيه. ثم يستدير ليخرج، غير أنه يتراجع في الحال. يتوقف هناك، ويتأملني مجدداً كمن يتأمل لغزاً، معضلة، كمن يتأمل في مشكلة يستعصي حلها. ثم يقول في النهاية، دعك من اليتامى، اكتب قصتك الحقيقية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

31

ها هي قصتي الحقيقية. وبفضلها اكتشفتُ أن أبي بدأ يحبني منذ رآني كابن خيالي، على عكس أمي تماماً، التي حلمت دوماً أن أكون ابناً واقعياً. هي تهاتفني من آن لآخر وتسألني بحزن كيف حالك. إنها طريقتها في الغفران على دفعات لأنها لا تريد أو لا تستطيع أن تغفر لي مرة واحدة. غير أنها لا تتحدث على الإطلاق عن امكانية عودتي إلى بيتها، إذ قررت أن تنجب ابناً آخر (حملها عمره بالفعل أربعة أشهر، حملٌ معرّض لمخاطر كبيرة، كما سمعت، لكبر سنها) وتفكر، رغم أنها لا تصرح، بأن تأثيري سيكون سيئاً عليه.

أما سارة، خطيبة أبي، فلا تتقبل فقط عيشي معهما، إنما تمتن لذلك، إذ يروق لها الخيال أيضاً. وحين تقول لأبي إني "مريح جداً"، ينظر إليها بامتنان وحيرة، وأظن أنه يتساءل كيف ينتهي المطاف بهذا الأبله الحقيقي الذي كان يتبول في السرير بأن يفعل شيئاً خيالياً كمضاجعة فتيات مبتورات. ومن حين لآخر لا يزال يسألني عن إيريني كمن يسأل عن تطورات أحداث فيلم وأنا أقول له لا نخرج. وهو يسأل لماذا، كأنه يحثني على العودة إليها، فأقول له إننا نستريح لفترة لنقيّم العلاقة، إذ أننا غير متأكدين من مشاعرنا. وهو يقول لا ينبغي أن أقول إننا غير متأكدين من مشاعرنا لأنها عبارة مستهلكة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من النوع الرديء. قلها بصيغة أخرى، يضيف، كأن الحياة ورشة كتابة أو ورشة قراءة. لا يعرف أن إيريني هي الناجية الوحيدة من كارثة كنت أنا مفجرها ذات يوم من أيام طفولتي حين رحتُ لأنتحر لأنه لم يكن يحبني. ولو عرف، سيدّعي أنه لا يعرف.

على أي حال سيعرف ذلك عندما يقرأ هذه القصة التي أوشكت أن أضع المفتاح في بابها، مع أني لا أعرف هل أضعه من الداخل أم من الخارج. لو أني في الداخل سأكون ابناً خيالياً بقية حياتي. ولو كنت بالخارج، ربما يكون بوسعي أن أتمتع بوضع واقعي. ثم هناك إيريني، التي رغم مرور زمن منذ هجرتها، إلا أني أحبها وأكرهها كل يوم في الأسبوع بالقوة نفسها. أخشى أن أهاتفها في النهاية وأن أغفر لنفسي ثم نعود لنكون معاً ونكون سعيدين، رغم أنها ستكون سعادة صناعية، تعويضية. ربما مع الوقت نتزوج وقد ننجب حتى أطفالاً وأفضّل أنا أن يكونوا واقعيين، لكن ربما يولدون خياليين، لأني أشعر أني مدان منذ ميلادي بنوع من اللاواقعية.

.....

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اقرأ للمؤلف أيضاً في المتوسط

رواية "من الظل"

ارتبكت حياةُ دميان لوبو منذ أنْ فقدَ وظيفته. في أحد الأيام، ودون أن يعرف حتّى هو لماذا؟ يرتكب سرقة في سوق الأنتيك، ويفتضح أمرُه، مما يضطره إلى الاختباء داخل خزانة كبيرة وغامضة. وقبل أن يُسعِفَه الوقتُ للخروج منها، كانت الخزانةُ تُغلَّف وتُنقلُ إلى منزلِ مُشتَريتها لوثيا. هكذا تبدأ حياةٌ جديدةٌ لدميان. خزانةُ الملابسِ تلك ليست مكاناً مثالياً للاختباء فقط، بل هي نقطةُ مراقبةٍ مُميَّزة للوصول من خلالها إلى أسرار لوثيا العائلية والأكثر شخصية.

في هذه الرواية يقول لنا خوان خوسيه ميّاس أنَّ هناك ألف طريقةٍ للاختفاء عن أعين العالم، وربَّما السؤال الأكثر إلحاحاً هل سنخرجُ من عتمتنا بعد زوالِ الخطر؟ من هناك، من الظلّ حيثُ نتعرَّى حياتُنا التي نراها، بعينٍ أخرى، مجسَّدة أمامَنا في حياةِ المنبوذين في المجتمعات المعاصرة، ومن الظل أيضاً يقدّم لنا ميّاس مفهوماً أوسع للعالم، عبر تكنيك سردي مبتكر، ولغة شفافة كالماء.

روايةٌ تنضح بالحيوية والرؤى، وأحياناً تُصبح خفيفةً وساخرة. سريالية ومُتحرِّرة بشكلٍ غير مسبوق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رواية "أحمق وميّت وابن حرام وغير مرئي"

كل شيء يبدأ يوم إقالة "خيسوس"، من منصب رفيع بشركة حكومية، حيث يقرر أن يعيد تشكيل حياته متكئاً على خياله كحجر زاوية. يكتشف حينها أنه عاش حياةً مزيّفةً، بشخصية ليست شخصيته، فيبدأ بالتخلي عن كل ما هو مزيف ليصل إلى حقيقته. ومن خلال شارب مستعار ستتم عملية التحول والانتقال إلى الطرف

Telegram:@mbooks90

الآخر، الطرف النقيض، أو الطرف الحقيقي في داخله. وأثناء هذا التحول ستنصهر المشاهد العبثية مع السوريالية والواقعية لتشكل لوحة تتداخل ألوانها بشدة ولكنّها شديدة التنسيق أيضاً، لوحة تحمل الكثير من التأويلات. تأويلاتنا نحن، بكلّ ما فينا من تعقيدات وشوارع مظلمة.

إنها لعبة مثيرة من اللقاءات وقطع العلاقات، من الحب والعزلة، من الحياة والموت. "أحمق وميت" بالإضافة لكونها رواية هي قراءة شديدة العمق في النفس الإنسانية، وهي نقد اجتماعي لإنسان اليوم، عبر لغة لامعة وحادَّة مثل نصل سكين، وعبر عالمٍ سرديٍّ فريد ومتفرد، عالم ميّاسي يحدث فيه أن يجمع شتات أفكار العالم ويربط بعضها ببعض، لنصل، في نهاية المطاف، إلى زاوية رؤية نادراً ما تخطر لنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(1) الكرة الزجاجية الملونة وهي لعبة أطفال شهيرة وتسمى شعبياً بأسماء مختلفة: بلية، أو دحلة، أو جلّة، أو كجّة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم الرفع بواسطة:
Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner